الشواهد اللغوية في المعاجم العربية

(معجم أساس البلاغة للزمخشري للعلامة الزمخشري أنوذجا)

Linguistic Evidence in Arabic Dictionaries

(evidence of the dictionary of the basis of rhetoric {Asas ALbalaagha} by the scholarJarallah Al-Zamakhshari, died in 538 AH)

عبدالحكيم عبد الزهرة حسن **أ.د. خضير عباس درويش**

جامعة كربلاء / كلية التربية للعلوم الانسانية

ملخص البحث:

ينقسم بحث (الشواهد اللغوية في المعاجم العربية) إلى مبحثين، إذ تناولت في المبحث الأول أوليات نشوء المعاجم العربية ومراحل تطورها عبر الزمن بالإضافة إلى مكانة اللغة العربية من بين لغات العالم في ذلك الوقت وسيادة هذه اللغة على باقي اللغات وكيف بدأ اهتمام المفكرين والباحثين في تدوين مفردات هذه اللغة في مصنفات خاصة سميت بالمعاجم، كما تناولت موضوع الشواهد اللغوية ومعايير اختيار الشواهد، واسباب هذا الاختيار وكذلك أنواع الشواهد اللغوية وطبقاتها واسباب تفضيل الشواهد الجاهلية وشواهد عصر صدر الإسلام على باقي الشواهد من الأزمنة اللاحقة. أما المبحث الثاني فقد تناولت فيه معجم (أساس البلاغة) للعلامة جار الله الزمخشري، وما يتميز به هذا المعجم عن باقي المعاجم السابقة له وكذلك اللاحقة، وكذلك سجلت فيه بعض الملاحظات التي كانت موجودة في المعجم.

Abstract:

The research (Linguistic Evidence in Arabic Dictionaries) is divided into two sections. In the first section, I dealt with the priorities of the emergence of Arabic dictionaries and the stages of their development over time, in addition to the position of the Arabic language among the languages of the world at that time and the supremacy of this language over other languages, and how the interest of thinkers and researchers began Recording the vocabulary of this language in special works called dictionaries. It also dealt with the subject of linguistic evidence and the criteria for choosing evidence, the reasons for this selection, as well as the types and layers of linguistic evidence and the reasons for preferring the pre-Islamic evidence and the evidence of the early Islamic era over the rest of the evidence from later times.

As for the second topic, I dealt with the lexicon (The Basis of Rhetoric) by the scholar Jarallah Al-Zamakhshari, and what distinguishes this dictionary from the rest of the previous and subsequent dictionaries, as well as some of the defects that were present in the dictionary.

الكلمات المفتاحية: ***Keywords***

المعجم العربي .Arabi dictionary

أساس البلاغة.Basis of rhetoric

جار الله الزمخشري.,Jarallah Al-Zamakhshari

الشواهد اللغوية.Linguistic evidences

تمهيد: العرب والعربية

ارتقت اللغة العربية في أواخر العصر الجاهلي رقيا كبيرا ، وتطورت جميع لهجاتها التي تتكلم بها القبائل المختلفة . ونشأت لهجة أدبية راقية ، تأخذ من هذه اللهجات جميعا ، وينظم بها الشعراء، ويخطب الخطباء، لتشيع آثارهم الفنية ويكتب لها الخلود . وحين انتشرت هذه اللهجة الأدبية اعتبرت اللغة الفصحى ، وبقية اللهجات غير فصيحة وتتفاوت في الرداءة بمقدار قربها أو بعدها من هذه اللهجة الأدبية . « قال أبو نصر الفارابي في أول كتابه المسمى بالألفاظ والحروف .. كانت قريش أجود العرب انتقادا للأفصح من الألفاظ ، وأسهلها على اللسان عند النطق ، وأحسنها مسموعا ، وأبينها إبانة عما في النفس . والذين عنهم نقلت اللغة العربية وبهم اقدي ، أو عنهم أخذ اللسان العربي من بين قبائل العرب ، هم قيس وتميم وأسد، فإن هؤلاء هم الذين عنهم أكثر ما أخذ ومعظمه ، وعليهم اتكل في الغريب وفي الإعراب والتصريف ؛ ثم هذيل وبعض كنانة و بعض الطائيين ، ولم يؤخذ عن غيرهم من سائر قبائلهم[١].

وأحس العرب جمال لغتهم ورقيها ، فحاولوا السيطرة عليها ليتخذوا منها سلاحا بتارا في عداوتهم وخصوماتهم ، فكانت القبيلة من العرب إذا نبغ فيها شاعر أتت القبائل فهنأتها بذلك ، وصنعت الأطعمة ، واجتمع النساء يلعبن بالمزاهر كما يصنعن في الأعراس ، وتتباشر الرجال والولدان ، لأنه حماية لأعراضهم وذب عن أحسابهم ، وتخليد لمآثرهم ، وإشادة لذكرهم[٢]. وأقيمت – في وقت السلم – المباريات والمنافرات الأدبية ، في أسواق التجارة، بين الشعراء الكبار، و كذلك بين الخطباء ، ليظهر كل منهم قدرته الأدبية ، وتفوقه في اللغة ، ويذيع ذلك عنه بين القبائل.

واعترف القرآن للعرب بهذه القدرة اللغوية ، قال تعالى : (مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلا جَدَلا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ) [٣]، وقال (فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا) [٤] ، بل القرآن نفسه الدليل على هذا التفوق اللغوي . فهو معجزة الرسول العربي الكبرى تحدى بها العرب جميعا في ميدان فخرهم في البلاغة.

ولما كانت هذه نظرة العرب إلى لغتهم ، ومحاولتهم التفوق فيها ، عنوا بتهيئة الظروف لأبنائهم، لكي تتيسر لهم السيطرة على اللغة والامتياز فيها . وكان من مظاهر هذه العناية بعث الأطفال إلى مواطن اللهجات الفصيحة، لتصير الفصاحة طبيعة لهم . ومثال ذلك الرسول الكريم (صلى الله عليه وآله وسلم) ، إذ أرسل إلى البادية في طفولته ، لهذا السبب ، إلى جانب النشأة البدوية والهواء الطلق . وقد بقي يذكر ذلك ، فكان يقول بصدد تعليل

فصاحته[٥] : (أنا أفصح العرب ، بيد أني من قريش ، وأني نشأت في بني سعد بن بكر)[٦]. ويتضح من هذا الخبر أنها لم تكن خاصة بالرسول ، وإنما عامة في أبناء كبراء مكة.

ومن مظاهر هذه العناية أيضا ، أنهم كانوا يدفعون صبيتهم إلى أدبائهم وشعرائهم ليعيشوا معهم ، وينشأوا على تفوقهم اللغوي . مثال ذلك زهير بن أبي سلمى الذي عاش مع خاله بشامة بن الغدير الشاعر ، فخرجه شاعرا . ومثال ذلك ما نسمعه عن الرواة الذين ينضوون إلى البارزين من الشعراء ، يحفظون أشعارهم ويدرسونها ويتخذونها نمطا لهم يحتذونه في آثارهم. وكانوا يقولون للشاعر لما يقول الشعر ولم يكن راويا لشاعرٍ قبله : (اعتزم الفلاة بغير دليل). وكان ذلك من أسباب ظهور المدارس والبيوت الشعرية ، فهذا بيت زهير يضمه هو وأبناءه وأحفاده ، وكلهم شعراء ، وهذه مدرسة عبيد الشعر تضم أوس بن حجر وزهيرا وابنه كعبا والحطيئة وغيرهم .

واستمرت عناية العرب بلغتهم بعد ظهور الإسلام ، وقيام دولتهم المترامية الأطراف ، بل زادت زيادة كبيرة إذ أحسوا بتفوقهم على الأمم الأجنبية، نتيجة تغلبهم عليهم ، فتمنوا بجميع مظاهر هذا التفوق كل عناية ، وميزوا كل ما يتصل بهم عما يتصل بهذه الأمم [٧].

وقد تحولت القبائل العربية منذ عهد عمر إلى جيش كبير، دُوِّن أسماء أفراده في ديوان العطاء، ويهاجر الشباب إلى المدينة ، ومنها إلى ميادين الحرب المختلفة في الشرق والشمال والغرب ، فتدفق عليهم الغنائم والفيء . وكان النظام السائد حربيا في أغلبه ، فالقائد الذي يفتح بلدا من البلاد ، يكون أول (أمير) عليه . وكان خلفه في أغلب الأحيان قوادا أيضا . وكان الجيش هو (الأمة)، والمقاتل هو (المواطن) .

في ظل هذا النظام ، وبفضل الفتوح الفسيحة ، والانتصارات المتصلة ، وجدت طبقة عربية عسكرية أرستقراطية في البلدان المفتوحة ، وعلى سيوف هذه الطبقة أقام معاوية – والأمويون بعده – ملكه ، وثبت دعائمه ، إذ جمع حوله هؤلاء الأمراء العرب ، وكانوا رؤساء لقبائلهم أيضا، واتخذ منهم حاشية له ، وموضعا لاستشارته ، وواسطة إلى تنفيذ أوامره وسلطته ، وقصر ولاية الأمصار والوظائف الكبرى عليهم . وصبغت الدولة الأموية بصبغة عربية ظاهرة الوضوح، مما حدا بالمؤرخين إلى تسمية هذا العصر (بالدولة العربية) .[٨]

وانقسم رعايا الدولة إلى طبقتين كبيرتين : طبقة السادة من العرب ، وطبقة الموالي ، وهي دون سابقتها في السياسة والاقتصاد والاجتماع، بالرغم من دعوة القرآن الصريحة إلى التسوية بين جميع المسلمين ، مهما كانت أصولهم .

فالمولى لا يلحق بديوان العطاء إذا التحق بالجند ، وإنما يأخذ مكافأة غير ثابتة ، أقل من عطاء العربي [٩] ، ولا يكون من الفرسان بل من المشاة [١٠] ، ولا يعفى من الجزية حتى بعد إسلامه [١١] ، ولا يسمح له بسكنى الأمصار ، كيلا ينقطع الخراج، ولأن الموالي أهل قرى في نظر الأمويين [١٢] ، ولا يتقدم العربي في المواكب ، بل يمشي معه في الصف ، ولا يكنى ، لأن الكنية دليل الاحترام والتبجيل ، وإنما يدعى باسمه أو لقبه [١٣] ، وبعض الفنون مثل الموسيقى مباح للمولى ولكنه يشين العربي ويخدش كرامته [١٤] . وإذا أراد المولى أن يتزوج فأمامه النساء من الموالي ، وعليه أن يخطب المرأة إلى مواليها (من العرب) ، فإن رضى زُوج وإلا رُد ، أما إذا

تزوج امرأة برأى أبيها أو أخيها ، بدون استشارة مواليهم (من العرب) فيفسخ النكاح، وإن كان قد دخل بها كان سفاحا غير نكاح [١٥] . أما زواج المولى من العربية فهذا المحال ، وإن حدث كان الطامة الكبرى : يفرق بينه وبينها ، ويجلد مئتي سوط أو نحوها ، ويحلق رأسه ولحيته وحاجباه [١٦] . بل كره الخوارج ، هذا الزواج، وفضل بعض أنصاره قتل العربية على أن يبني بها مولى أو يصير سيدا لها [١٧] .

فمباح للعرب أن يسترقوا غيرهم ، ولكن العربي لا يُسترق [١٨]. والدعوة إلى المساواة الدينية نفسها ، وأن لا فضل لعربي على عجمي ، أصابها ما أصاب الحياة عامة ، فالمولى لا يؤم العربي [١٩]، ولا يصلى على الجنائز إذا حضر أحد من العرب [٢٠] . وأعظم من ذلك أن دم المولى مباح ، أما العربي فلا[٢١]. والدم العربي يجب أن يبقى نقيا خالصا من كل شائبة . وقد جرتهم نظرتهم هذه إلى كراهية التزوج من الموالي في أول الأمر . يقول الأصمعي عن ابن أبي الزناد : (كان أهل المدينة يكرهون اتخاذ أمهات الأولاد ، حتى نشأ فيهم القراء السادة: علي بن الحسين بن على بن أبي طالب (عليهم السلام) ، والقاسم بن محمد بن أبي بكر ، وسالم بن عبد الله بن عمر ، ففاقوا أهل المدينة علما وفقها وعبادة وورعا، فرغب الناس حينئذ في السرارى)[٢٢]. وقد احتقروا طائفة المولدين ، أي أبناء الجوارى وسموهم «الهجناء» وعيروهم بذلك . يروي المسعودي أن زيد بن على دخل على هشام ابن عبد الملك بالرصافة ، فقال له هشام : أنت الذي تنازعك نفسك في الخلافة ، وأنت ابن أمة[٢٣] . والأمويون يتشددون كل التشدد في المحافظة على نقاء دمائهم ، فلا يصهرون إلا إلى العرب الخلص . يقول ابن عبد ربه : كان عقيل بن علفة المري أشد الناس حمية في العرب ، وكان ساكنا في البادية ، وكان يصهر إليه الخلفاء . وقال لعبد الملك بن مروان ، وخطب إليه ابنته الجرباء : (جنبنى هجناء ولدك) [٢٤]. وظهر هذا في الخلفاء الأمويين أنفسهم، إذ كانوا من أصل عربي خالص عدا الثلاثة الأخيرين، فقد كانوا أولاد أمهات غير عربيات في الأصل . وتعليل ذلك أن الدولة كانت آخذة في الانهيار ، وأن الحزب الأموي كان يوشك أن يتحطم.

وكان هذا الاختلاط من الأسباب المباشرة التي دعت إلى تثبيت الكلام العربي واللسان العربي وصونه من الانعتاق من فصاحته، فظهرت الدراسات اللغوية وارتبطت بالدراسات الدينية أو اتحادهما في نشأتهما . فقد نزل القرآن ، على الرسول العربي الكريم ، ليدعو قومه إلى سبيل الرشاد . فكان بلغتهم وعلى أساليب كلامهم، ليتم التفاهم والتجاوب بينه وبينهم. ومن الطبيعي أنه لم يتساو القوم في فهمهم له ، مثله في ذلك مثل كل أمر من أمور الحياة و الكتب خاصة ، وفضل بعضهم في ذلك بعضا . وكان أحسنهم له فهما نبي الهدى محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) الذي أنزل الكتاب على قلبه ، وكان معجزته العظمى . فكان مرجعهم في تفسير ما غمض عليهم، ولم تصل إليه أفهامهم من دقائق . و بعد أن لحق رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بربه الكريم، تصدى الصحابة لتفسير القرآن الكريم وفق ما حفظوه من روايات رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)؛ منهم من اشتهر بذلك ، ومنهم من لم يفسر إلا قليلا ، ومن أشهرهم في هذا عبد الله بن العباس .[٢٥]

وكانت هذه الحركة التي ترمي إلى توضيح آيات القرآن ، هي الحركة العلمية الأولى عند المسلمين . بدأت مقصورة على محاولة فهم القرآن، ثم أخذت بالاتساع لعلوم تتصل بفهم نصوص القرآن الكريم، حتى شملت في مدة وجيزة جميع العلوم التي عرفها العالم القديم. فتفسير غريب القرآن ومشكله أولى الحركات العلمية التي رآها

العرب ، ورأى بعض من فسر الغريب أن كثيرا منه غريب عن الأفهام ؛ لأنه ليس من لغة قريش ، وإنما جاء في القرآن من لغات القبائل الأخرى ، فأشار إلى ذلك . وسمع بعضهم الآخر من اختلط بهم من أهل الكتاب ، ومن أهل البلاد القريبة من الحجاز ، و من أهل الأقطار المتاخمة لبلاد العرب ، والتي دخلت تحت سيطرة الإسلام ، أن بعض هذه الألفاظ موجود في لغات أخرى ، فأشاروا إلى ذلك .. فكأنما جمعت هذه المحاولات الأولى بين تفسير الغريب والمشكل، والإشارة إلى أصله في اللغات القبلية والأجنبية ، وكانت هذه المحاولات المعين الذي استقى منه اللغويون بعد ذلك.(٢٦)

وكان للحديث الشريف نصيبه في إظهار الدراسات اللغوية . فقد اتجهت هذه الدراسات إلى العناية بغريب الحديث ، كما عنيت بغريب القرآن . ولعل أهم من ذلك أن الدراسات القرآنية – أو تفسير القرآن وغريبه – كانت تعتبر من الحديث في نشأتها الأولى ؛ لأن المفسر الأول هو الرسول الكريم ، والحديث حديثه عليه الصلاة والسلام، فما فسره من القرآن الكريم، لا يخرج عن كونه حديثا نبويا في الأصل . ولذلك كانت كتب التفسير الأولى جزءا من كتب الحديث ، ثم انفصلت عنها ، ولكنها بقيت مصطبغة بمنهج الحديث ، وسميت التفسير بالمأثور ، حتى ظهر نوع جديد من التفسير يعتمد على شخصية المفسر واجتهاده .(٢٧)

ومن الظواهر الأخرى الجديرة بالتسجيل لمعاصرتها تيار الدراسات اللغوية ، ومدها إياه بالروافد ، ظاهرة التدوين العلمي . ففي هذه الحقبة التي شملت أواخر العصر الأموي وأوائل العباسي ، وضعت أسس معظم العلوم العربية، نقلية: كعلوم القرآن والحديث والفقه والأصول والنحو ، وعقلية الرياضة والمنطق والكلام والفلسفة . وقل أن نرى علما إسلاميا نشأ بعد، ولم يكن قد وجدت جذوره في هذه الفترة . وكان نشاط المسلمين في ذلك يسترعى الأنظار. وليس هناك من نشاط يشبهه إلا نشاط العرب في فتوح البلدان . فقد نظم العلماء أنفسهم فرقا كفرق الجيش ، كل فرقة تغزو الجهل أو الفوضى في ناحيتها حتى تخضعها لنظامها ، ففرقة للغة ، وفرقة للحديث ، وفرقة للنحو ، وفرقة للكلام . وهم يتسابقون في الغزو والانتصار وتدوين العلوم وتنظيمها ، تسابق قبائل العرب في الفتوح والغزوات (٢٨).

اجتمعت هذه العوامل جميعا ، فأثمرت الدراسات اللغوية ومنها حركة المعاجم العربية. ومن الطبيعي أن نشأت الدراسات اللغوية الخالصة ضعيفة ، لا تستطيع أن تعتمد على نفسها ، أو تتفرد بوجودها ، ثم أخذ المهتمون بها يغذونها بأقوالهم وأبحاثهم ، فقويت ونمت ، إلى أن استطاعت الوقوف على رجليها ، فالاستقلال بنفسها ، ثم بلغت مرحلة الفتوة والنضج . وفي هذه المرحلة الأخيرة ظهرت المعاجم . أما قبلها من مراحل فلم تر المعاجم ، وإنما رأت رسائل لغوية صغيرة ذات اتجاهات مختلفة .(٢٩)

وقد ذهب أحد البحاثين المحدثين (٣٠) إلى أن هذه الدراسات سارت في مراحل ثلاث :

المرحلة الأولى : جمع الكلمات حيثما اتفق ، فالعالم يرحل إلى البادية يسمع كلمة في المطر ، ويسمع كلمة في اسم السيف ، وأخرى في الزرع والنبات ، وغيرهما في وصف الفتى أو الشيخ ، إلى غير ذلك . فيدون ذلك كله حسبما سمع، من غير ترتيب إلا ترتيب السماع .

والمرحلة الثانية : جمع الكلمات المتعلقة في موضوع واحد .. والذي دعا إلى هذا في اللغة – على ما يظهر أنهم رأوا كلمات متقاربة المعنى ، فأرادوا تحديد معانيها ، فدعاهم ذلك إلى جمعها في موضع واحد ... وتوجت هذه المرحلة بكتب تؤلف في الموضوع الواحد، فألف أبو زيد كتابا في المطر ، وكتابا في اللبن . وألف الأصمعي كتبا كثيرة صغيرة ، كل كتاب في موضوع .

المرحلة الثالثة : وضع معجم يشمل كل الكلمات العربية على نمط خاص ، ليرجع إليه من أراد البحث عن معنى كلمة .

تعريف معنى المعجم:

جاء في لسان العرب (مادة عجم): العُجم والعَجَمُ خلاف العُرب والعرب.[٣١] والعُجْم جمع الأعجم الذي لا يفصح ولا يبين كلامه وإن كان عربي النسب، والأنثى عجماء... أما العجمي فهو الذي من جنس العجم أفصح أو لم يفصح، والأعجم الذي في لسانه عجمة. وكل من لا يقدر على الكلام فهو أعجم ومستعجم... واستعجم الرجل: سكت. واستعجمت عليه قراءته: انقطعت فلم يقدر على القراءة، المعجم: ديوان المفردات اللغة مرتب على حروف المعجم. وحروف المعجم: حروف الهجاء. ويقول ابن جني: «أعلم أن (عجم) إنما وقعت في كلام العرب للإبهام والإخفاء وضد البيان والإفصاح»[٣٢]. وهكذا صار المعجم، هو ما يستعمله الناس لإزالة غموض الكلمات والعبارات وتبيان مدلولاتها، ومعرفة طريقة كتابتها والنطق بها

معنى الشاهد اللغوي:

الشَّاهِدُ لغة: مَن يؤدِّي الشهادة. و الشَّاهِدُ الدَّليلُ.[٣٣] . وشَهادةُ: خَبَرٌ قاطِعٌ، وقد شَهِدَ وشَهُدَ، وقد تُسَكَّنُ هاؤُهُ. شَهِدَهُ شُهوداً: حَضَرَهُ، فهو شاهِدٌ، الجمع: شُهودٌ وشُهَّدٌ. شَهِدَ لِزَيْدٍ بكذا شَهادةً: أدَّى ما عندَهُ من الشَّهادَةِ، فهو شاهِدٌ، الجمع: شَهْدٌ، جمع الجمع: شُهودٌ وأشْهادٌ. اسْتَشْهَدَهُ: سألَهُ أن يَشْهَدَ. و شهد الشاهد عند الحاكم اي بين ما يعلمه واظهره ومنه المشاهدة وهي المعاينة. ويفيد الشاهد لغة الحاضر والحافظ للراي والظاهر والمخبر والمبلغ عن الشيء. وعكسه الغائب.[٣٤]

ويقول فولتير في مقدمة (Le Littre) : إن قاموسا بدون شواهد هو جثة هامدة فالقاموس يمكّن من معرفة اللغة وفهم معاني مفرداتها كما يسهم في تثقيف مستعملة باطلاعه عن كثب على عدد هام من شعراء العربية وكتابها وعادات شعوبها وتقاليدهم وحكمهم وتاريخهم عبر العصور.[٣٥]

ويعتبر توظيف الشواهد نوعا من الشرح بذكر السياقات الدلالية للمفردة عن طريق الشعر والنثر الممثل في اخبار العرب والامثال والخطب والرسائل الادبية والمقامات والاقوال المأثورة والتعابير الاصطلاحية وعن طريق النصوص الدينية من قران وسنة، كما تقوم الشواهد بدور ايصال اللفظ لمستعمليه والاحاطة بمختلف معانيه فهي تؤكد وجود الوحدة المعجمية في اللغة وتربطها بالتجربة التي عاشتها وتعيشها المجموعة اللغوية.

كان مصطلح (الشاهد) في العربية يعني كل ما يُستشهد به ، شعراً كان أو نثراً عند السابقين أما الباحثون العرب المعاصرون فلا يكاد ينصرف مصطلح (الشاهد) عندهم إلا إلى الشعر دون النثر، وهو اتجاه نراه واضحا عند علماء العربية المتأخرين من قبيل تسمية الجزء باسم الكل؛ فهم حين يتحدثون عن الشواهد فإنما يعنون بها غالبا شواهد الشعر على سبيل الحصر. مثال ذلك شواهد القاموس المحيط للفيروزأبادي، وهي الشواهد المشار إليها

بهذا الاسم في حاشية هذا المعجم، ومثال ذلك شرح شواهد المغني، أي شرح الشواهد الشعرية فيه، خزانة الأدب للبغدادي الذي يقول في مقدمة كتابه: " هذا شرح شواهد الكافية لنجم الأئمة، وفاضل هذه الأمة، المحقق محمد بن الحسين الشهير بالرضي – الأستراباذي إلا أن أبياته التي استشهد بها وهي زهاء ألف بيت كانت محلولة العقال..."[٣٦]

ويبدو أن هذا التوجه في استخدام لفظ (الشواهد) يراد به شواهد الشعر قد بدأ قبل ذلك بزمان من قبيل التوسع والمسامحة في القول؛ فهذا ابن هشام الأنصاري (ت٧٦١هـ) يؤلف كتابا يسميه: "تخليص الشواهد وتلخيص الفوايد" بعد أن شكا إليه "جماعة من الطلاب الراغبين في تحقيق علم الإعراب ما يجدونه من نكد الشواهد الشعرية المستشهد بها في "شرح خلاصة الألفية" وأنهم لم يجدوا من يحسن ايرادها ..."[٣٧] وقد استمر هذا التوجه في استخدام لفظ الكل يراد به الجزء حتى كاد يصبح أمرا مفروغا منه في أيامنا؛ فهو أول ما يتبادر إلى الذهن حين يرد لفظ (الشواهد) في العربية المعاصرة. ويكفي للتأكد من هذا التوجه مطالعة فهارس كتب التراث المحققة في أيامنا حيث يشار إلى الشواهد، يُعنى بها الشواهد الشعرية دون ما عداها.

والشاهد" اللغوي" في النحو والمعجم ، هو بيتٌ من الشعر، أو شطرٌ من بيتٍ شعري أو آيةٌ قرآنية او حديثٌ شريف أو مثلٌ أو قولٌ نثري لراوية، أو لأعرابي، أو لصحابي الخ، ممن يوثق بعربيته (وهو ما يندرج في المصدر النثري) أو جملة مستله من حديث نثري، أو شاهد شعري يُستحضر، أو يُساق، لتوثيق دلالة كلمة ما، أو للبرهان على استخدام إحدى دلالاتها، أو لبيان سلوك الكلمة اللغوي: اللهجي، أو الصرفي، أو النحوي، بالإضافة إلى ما يمكن أن تحتاج إليه الكلمة، أحيانا، من التوضيح .

فيكون الشاهد دليلا على استعمال لغوي معين (في الصوت، أو الصرف، أو الدلالة، أو النحو، قديماً أو حديثا، أو تداولا مستمراً)، مكتوباً أو مسموعاً، يستعين به اللغوي على تحليل ظاهرة معينة، من حيث السلامة، ومدى الانتشار، وزمن الاستعمال .

وتمثل الشواهد ثروة لغوية ثمينة وهامة خاصة في ما تضمنته امهات المعاجم من امثلة كالجمهرة لابن دريد (ت ٣٢١هـ) . وتهذيب اللغة للأزهري (ت٣٧٠هـ). والصحاح للجوهري (ت ٣٩٨هـ) . وأساس البلاغة للعلامة جار الله الزمخشري(ت٥٣٨) ولسان العرب لابن منظور (ت٧١١هـ). وتاج العروس للزبيدي (ت ١٢٠٥هـ).

وقد استشهدت هذه المعاجم وغيرها بالمصادر الأساسية التي قام عليها التأليف المعجمي قديما كما اعتمدت على الأمثلة التي أخذت مشافهة عن متكلمي اللغة وهذا المصدر الأخير يعد استعمالاً حياً للرصيد اللغوي المتداول. إلا أن هذه المعاجم تتفاوت في الاهتمام بسياقات المفردة، وإن اثبتت الصناعة المعجمية حاجة المعجم الى الشواهد لبيان المعاني المختلفة للمفردة وهي حاجة اصبحت ضرورية وان بدا وجودها عند بعض المعجميين جوازا واختياراً فالقاموس المحيط للفيروزابادي (ت ٧١٨هـ) مثلاً ، قد هَمَّش الشواهد وجعلها دون مستوى التعريف قيمة فأهمل بذلك سياقات اللفظ ومعانيه المتعددة ظناً منه ان التخلي عن الشواهد التي من مهامها تدعيم التفسير ومساندة التعريف وتدقيق المعنى وتوضيح استعمالات الوحدة المعجمية، إنما هي بدعة لم يتفطن اليها غيره يقول في مقدمة القاموس المحيط : "وألفت هذا الكتاب محذوف الشواهد، مطروح الزوائد، معرباً عن

الفصح والشوارد."[٣٨] وهو يظن ان اسقاط الشواهد أكسب معجمة مواصفات التأليف الجيد ومنها حسب رأيه حسن الاختصار وتقريب العبارة وتهذيب الكلام وايراد المعاني الكثيرة في الالفاظ اليسيرة.[٣٩] إلا أنه مع ذلك يأتي بالشواهد الشعرية في بعض المواضع لغرض بيان المعنى، كما ذكر شاهداً من الرجز أورده الجوهري في معجمه، إذ أنه يصحح نسبة الشاهد إلى صاحبه.[٤٠]

وسار على خطى القاموس المحيط بعض المعاصرين في المعاجم الحديثة مثل المنجد والرائد ومحيط المحيط، فنزلت نسبة الشواهد فيها مقارنة بما كانت عليه في المعاجم القديمة، ثم اعيد رد الاعتبار لدور الشاهد في التأليف المعجمي، بظهور معجم مجمع اللغة العربية بالقاهرة (المعجم الوسيط)، وغيره من المعاجم فاستندت الى شواهد من التراث العربي والى شواهد مصنوعة مستمدة من واقع الحياة العصرية يضعها اصحاب المعاجم لتوضيح مداخل معجمية محدثة متعلقة بمجالات الحياة المختلفة المعاصرة كالسياسة والفن والموضة والحرب وحتى الإرهاب[٤١].

إن الشاهد مساعد للتعريف وموضح للسياق ومحقق لدور المعجم في ممارسة اللغة وترسيخها وتداولها وتكتسب اللفظة المعجمية من وجوده في النص المعجمي شرعيتها اللغوية وانتماءها إلى الرصيد الحي فلا تكتفي بمعناها المجرد في اطار اللغة بل تنصهر في الاستعمال بواسطة الشواهد التي من خلالها تبرز للقارئ خصائصها التركيبية والدلالية وبفضلها يصبح المعجم نظاما ونصوصا ولا يبقى كما شاء له بعض الباحثين قائمة من المفردات فالشاهد يضمن معنى المدخل ويكفل دلاله اللفظ ويثبت وجودة ويصاحب التعريف ليؤكد صحته دون[٤٢].

معايير اختيار الشواهد:

تداولت كتب النحو واللغة نصا منسوبا إلى أبي نصر الفارابي يحدد فيه المعايير التي اعتمدها علماء العربية في اختيار العرب الموثوق بعربيتهم، وهم الذين يمكن إذن أن يعتمد عليهم في مسألة الاستشهاد. وقد نقل هذا النص بشيء من الاختلاف، أبو حيان الأندلسي في تذكرة النحاة ، ثم السيوطي في المزهر وفي الاقتراح في علم أصول النحو. جاء في النص المذكور: "كانت قريش أجود العرب انتقاداً للأفصح من الألفاظ، وأسهلها على اللسان عند النطق، وأحسنها مسموعا، وأبينها إبانة عما في النفس، والذين عنهم نقلت العربية، وبهم أُقْتُدي، وعنهم أخذ اللسان العربي من بين قبائل العرب هم: قيس وتميم وأسد؛ فإن هؤلاء هم الذين عنهم أكثر ما أخذ، ومعظمه، وعليهم أُتُّكِل في الغريب، وفي الاعراب والتصريف، ثم هذيل وبعض كنانة وبعض الطائيين، ولم يؤخذ عن غيرهم من سائر قبائلهم".[٤٣]

"وبالجملة، فإنه لم يؤخذ عن حضري قط، ولا عن سكان البراري ممن كان يسكن أطراف بلادهم المجاورة لسائر الأمم الذين حولهم، فإنه لم يؤخذ لا من لخم ولا من جذام فإنهم كانوا مجاورين لأهل مصر والقبط، .. ولا من حاضرة الحجاز لأن الذين نقلوا اللغة صادفوهم حين ابتدؤوا ينقلون لغة العرب، قد خالطوا غيرهم من الأمم وفسدت ألسنتهم".[٤٤]

يشير هذا النص إلى سببين أساسيين من أسباب فساد اللغة وعدم الوثوق بعربية أصحابها:

أ- أولهما سُكنى الحواضر.

ب-وثانيها سُكنى أطراف الجزيرة المتاخمة لبلاد العجم .

ويترتب على هذين السببين أنَّ العرب قد اختلطوا بالأعاجم، فاختلطت عليهم لغتهم بسبب هذا الاختلاط. يرتبط هذان السببان ارتباطا وثيقا بالمكان، لأنه يحصر الفصاحة في وسط الجزيرة بالبادية، ويجعل أطراف الجزيرة وحواضرها أمكنة لفساد الألسنة. غير أن هناك سببا ثالثا يطل من خلال السطور، هو التأخر في الزمان، ذلك أن الفارابي يقول: "لأن الذين نقلوا اللغة صادفوهم حين ابتدؤوا ينقلون لغة العرب قد خالطوا غيرهم من الأمم". يجد هذا السبب الثالث المرتبط بالزمان تصديقا له في عبارة أهملها أبو حيان والسيوطي في مانقلاه عن الفارابي. وبدون هذه العبارة قد يبدو النص المنسوب إلى الفارابي نصا مضللا في إطلاقه وتعميمه. وهو نص تكذِّب الوقائع ما جاء فيه من قوله "إنه لم يؤخذ عن حضري قط ولا عن سكان البراري ممن كان يسكن أطراف بلادهم التي تجاور سائر الأمم الذين حولهم" فقد احتج علماء العربية، بصريين وكوفيين، بشعراء القبائل التي استبعدها النص، فأخذوا عن أهل الحواضر وعن أهل البوادي، وأخذوا عن وسط الجزيرة وعن أطرافها، وإن اختلفت نسبة الأخذ عن كل واحد.(٤٥)

لو نظرنا إلى نص الفارابي في كتاب الحروف تصحح الصورة التي شوهها النص المتداول الذي نقله أبو حيان ثم نقله عنه السيوطي لأن في نص الفارابي إشارة تاريخية غائبة عند الناقلين، فقد جاء فيه: "وأنت تتبين ذلك متى تأملت أمر العرب في هذه الأشياء، فإن فيهم سكان البراري، وفيهم سكان الأمصار. وأكثر ما تشاغلوا بذلك من سنة تسعين إلى سنة مائتين. وكان الذي تولى ذلك من بين أمصارهم أهل الكوفة والبصرة من أرض العراق، فتعلموا لغتهم والفصيح منها من سكان البراري منهم دون أهل الحضر، ثم من سكان البراري من كان في أواسط بلادهم، ومن أشدهم توحشا وجفاء، وأبعدهم إذعانا وانقيادا وهم قيس وتميم وأسد وطيء ثم هذيل، فإن هؤلاء هم معظم من نقل عنه لسان العرب، والباقون فلم يؤخذ عنهم شيء لأنهم كانوا في أطراف بلادهم مخالطين لغيرهم من الأمم")(٤٦).

لا يشير النص الذي أخذه أبو حيان عن الفارابي ونقله عنه السيوطي إلى الفترة الزمنية التي وردت في النص من سنة تسعين إلى سنة مائتين، وهي فترة التدوين التي انصرف علماء العربية فيها إلى جمع اللغة. قد يكون صحيحا أن علماء اللغة لم يقصدوا الحواضر ولا أطراف الجزيرة المجاورة للأمم الأخرى ليأخذوا عن العرب فيها، بل قصدوا البوادي في وسط شبه جزيرة العرب. غير أن هذا لا يعني على الإطلاق أنهم لم يعتدوا بأشعار القبائل التي سكنت الحواضر وأطراف الجزيرة قبل هذه الفترة، ولم يأخذوا بأقوال العرب فيها؛ فهذه الأشعار والأقوال محفوظة متوارثة مشافهة عن الأقدمين، ولا يقول نص الفارابي إن علماء العربية لم يأخذوا ما نقله أهل البوادي في أواسط الجزيرة عن العرب السابقين، في الحاضرة وفي البادية، وفي أطراف الجزيرة وفي أواسطها. إن التمييز الضروري بين هاتين المرحلتين هو الذي يسمح بمعرفة موقف علماء العربية، فهم لا يحتجون في القرن الثاني للهجرة بغير أهل البوادي في وسط الجزيرة، ويحتجون بالشعراء الجاهليين وبشعراء القرن الأول أينما كانت ديارهم في الحاضرة أو في البادية، كما هو حال عمر بن أبي ربيعة الذي أنفق عمره في الحواضر متنقلا بين مكة

والمدينة، وأينما كانت ديارهم، في وسط شبه جزيرة العرب أو في أطرافها كما هو حال المثقب العبدي في البحرين، والممزق من عبد القيس في الأطراف الشرقية للجزيرة.(٤٧)

يذكر علماء العربية إذن إلى جانب معيار المكان شرطا في الفصاحة والاستشهاد معياراً آخر مرتبطا بالزمان؛ فهم يرون أن اللحن قد فشا و فسدت الألسنة بعد منتصف القرن الثاني للهجرة، فلم يعد يحتج بشاعر من الشعراء سواء أكان من شعراء الحواضر أم من شعراء البوادي، ومن أطراف جزيرة العرب أم من أواسطها، فالاستشهاد إنما يكون بالقدماء أينما كانوا. والشعراء في نهاية القرن الثاني للهجرة محدثون كلهم، فلا يستشهد بهم أينا حلوا، وحيثما ارتحلوا، ولا فرق بين وسط وطرف، ولا بين مدر ووبر إلا في الفترة المشار إليها من أواخر القرن الأول الهجري إلى نهاية عصر الاحتجاج في القرن الثاني يقول السيوطي أول الشعراء المحدثين بشار بن برد (...) ونقل ثعلب عن الاصمعي قال : خُتِمِ الشعرُ بابن هرمه ، وهو آخر الحجج ".(٤٨)

أهمل علماء العربية، نحويين ولغويين، كتاب العربية ومبدعيها وعلماءها في شواهدهم وأمثالهم؛ فالأطباء والفلاسفة والرياضيون كابن سينا والفارابي والخوارزمي وغيرهم كثير، غائبون حتى في معاجم العربية التي أهملت كتاباتهم كما أهملت مصطلحاتهم لأن علومهم قد اعتبرت من علوم العجم، وكثير من ألفاظهم من الدخيل فلا مكان له في المعجم العربي الفصيح. ولم يكن حظ كبار الناثرين كالجاحظ والتوحيدي والصاحب بن عباد وغيرهم أحسن بكثير، فهم غائبون عن كتب النحو وعن كتب اللغة في الموضوع ذاته. فإن ذكرهم المعجم فإنما يذكرهم رواة لا منشئين.(٤٩)

في مقابل ذلك نجد أن كتب النحو واللغة تزخر بأشعار العرب التي تشكل العمود الفقري لما يستشهد به، أو لما يأتي تمثيلا وإيضاحا، فأشعار العرب أكثر عددا من آيات القرآن ومن الأحاديث والأمثال مجتمعة. غير أن الشعراء العرب الذين ماتوا بعد أواخر القرن الثاني للهجرة، وهم ألوف مؤلفة، لا ذكر لهم عموما في كتب النحويين واللغويين، فإن ذكروا فذكرهم محدود لا وزن له حتى في المعاجم الكبيرة الجامعة. ليس في لسان العرب، على ضخامته واتساعه، سوى ثلاثين بيتا لهؤلاء الشعراء تضيع في بحر هائل من الأشعار يتجاوز الآلاف إلى عشرات الآلاف من الأبيات .(٥٠)

لقد كانت الأصول التي وضعها علماء العربية في تصنيف من يوثق بكلامه، بالغة الصرامة لأنهم قيدوا أنفسهم بحدود زمانية لا يتعدونها. ولم يكن هذا القيد في مرحلة التأسيس، بل في المرحلة التي تلته؛ فالخليل وسيبويه يستشهدان بالعرب في أيامها، فهذا سيبويه يحتج بشعر ابن هرمة، ولم يكن بعيد العهد به، ويأخذ عن العرب في أيامه، وإن كان لا يأخذ عن كل أحد. وهذا الخليل يحتج بعربية أهل الأمصار في معجمه، ويستشهد بالشعراء الإسلاميين كما يستشهد بالشعراء الجاهلين. غير أن الطبقة التي جاءت بعد الخليل وسيبويه هي التي أقامت سورا بين القديم والحديث، وكانت "ملكية أكثر من الملك"، فلم تأخذ عن شاعر جاء بعد من أخذ عنه الشيوخ لأنها اعتبرت أن لغته قد فسدت، بل إنها بالغت في الرجوع إلى الوراء متشددة حتى في قبول من قبل به الشيوخ في الزمان وفي المكان؛ فالخليل يستشهد بذي الرمة على سبيل المثال، أما الأصمعي في بداية القرن الثالث فلا يأخذ بشعره لأنه كان "يأكل البقل في دكاكين البقالين".(٥١)

الاستشهاد في اللغة ضرب من الاحتجاج اللغوي، فإن اللغوي يأتي بالشهير ليكون حجة إما على وجود ما يحتج له في اللغة أو في الخطاب، سواء كان وحدة معجمية أو كان تركيبا نحويا، وإما على صحة استعماله. والشاهد يرتبط في كلتا الحالتين بالمصادر التي يعتمدها اللغوي في جمع مادته اللغوية وفي وضمها؛ ويمكن تصنيف تلك المصادر إلى صنفين كبيرين: الأول يمثله المتكلمون الذين ينتجون اللغة ويستعملونها، والثاني تمثله النصوص المدونة التي وضعوها.

المبحث الثاني

معجم أساس البلاغة للعلامة محمود الزمخشري (٤٦٧ – ٥٣٨)

ظهر معجم (أساس البلاغة) للزمخشرى في القرن الخامس، ويعد اتجاها جديدا في تأليف المعاجم العربية ، فقد ألف محمود بن عمر بن محمد بن أحمد الزمخشري أبو القاسم جار الله فخر خوارزم معجمه على أسس تختلف كل الاختلاف عما سبق في ذلك الوقت في المعاجم الأخرى . ويظهر هذا الاتجاه أول ما يظهر في عنوان الكتاب نفسه فهو ليس بمحيط ، ولا صحيح ، ولا تهذيب ، ولا بارع في اللغة ، وإنما (أساس البلاغة) . وإذن فالميدان تحول من (اللغة) إلى (البلاغة) وسبب هذا التحول واضح هو (القرآن الكريم) ، الذي أنزله الله تعالى (مختصا من بين الكتب السماوية بصفة البلاغة التي تقطعت عليها أعناق العتاق السبق ، وونت عنها خطا الجياد القرَّح) كما يقول المؤلف في مقدمته . فالميزة الأولى التي اختص بها القرآن معجزة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) البلاغة والاعجاز .

الهدف :

سعى المؤلف في معجمه هذا لأن يوضح وجوه هذا الإعجاز البلاغى (لأن الموفق من العلماء الأعلام ، أنصار ملة الإسلام ، الذابين عن بيضة الحنيفية البيضاء ، المبرهنين على ما كان من العرب العرباء حين تحدوا به من الإعراض عن المعارضة بأسلات ألسنتهم ، والفزع إلى المقارعة بأسنة أسلهم ، من كانت مطامح نظره ، ومطارح فكره ، الجهات التي توصل إلى تبين مراسم البلغاء ، والعثور على مناظم الفصحاء ، والمخايرة بين متداولات ألفاظهم ، ومتعاورات أقوالهم ، والمغايرة بين ما انتقوا منها وانتخلوا ، وما انتفوا عنه فلم يتقبلوا ، وما استركوا واستنزلوا ، وما استفصحوا واستجزلوا ، والنظر فيما كان الناظر فيه على وجوه الإعجاز أوقف ، وبأسراره ولطائفه أعرف)[٥٢]، . فهو يرمي إذن إلى تبيان أساليب البلاغة في أقوال العرب ، ليسمو منها إلى أساليبها في القرآن الكريم ، الذي نزل بلغتهم وعلى سننهم في التعبير .

والهدف البعيد لكل ذلك ديني كما هو واضح ، لأن الإنسان بعد أن يعرف هذه . الأسس البلاغية « يكون صدر يقينه أثلج ، وسهم احتجاجه أفلج » يضاف إلى ذلك هدف علمي .. لذا اجتمع الهدفان : الديني ، والعلمي ، فجعلاه يخصص كتابه لتتبع طرائق البلاغة العربية . ويؤدي هذا إلى هدف ثالث للمؤلف ، وهو هدف علمي تطبيقي ، أفصح عنه حين قال : « فمن حصل هذه الخصائص وكان له حظ من الإعراب الذي هو ميزان أوضاع العربية ومقياسها ، ومعيار حكمة الواضع وقسطاسها ، وأصاب ذروا من علم المعاني ، و حظي برش

من علم البيان . وكانت له قبل ذلك كله قريحة صحيحة ، وسليقة سليمة ، فحل نثره ، وجزل شعره ، ولم يطل عليه أن يناهز المقدمين ، ويخاطر المقرمين » أي أن الهدف الثالث هو تخريج الأدباء الفحول .[٥٣]

هذا الخلاف في الهدف جعله يختلف عن بقية المعاجم في ميدان البحث ، فالشغل الشاغل للمعجم اللغوى : اللفظة المفردة ، أيا كان معناها ، وأيا كان قائلها ، وأية كانت منزلتها الأدبية ، أما المعجم البلاغى. فيعني بالعبارة المركبة ، وليس كل عبارة مركبة ، وإنما العبارة التي لها تميز في عالم اللغة والأدب . فيورد الألفاظ في استعمالاتها العربية البليغة ، ولا يأتي بها مفردة عارية عن التركيب غالبا . وكان الزمخشرى شاعرا بهذا الفرق ، فصرح به في مقدمة كتابه ، حين قال : (ومن خصائص هذا الكتاب تخير ما وقع في عبارات المبدعين ، وانطوي تحت استعمالات المغلقين ، أو ما جاز وقوعه فيها وأنطواؤه تحتها ، من التراكيب التي تملح وتحسن ، ولا تنقبض عنها الألسن / كجريها رسلات على الأسلات ، ومرورها عذبات على العذبات . ومنها التوقيف على مناهج التركيب والتأليف، وتعريف مدارج الترتيب والترصيف ، بسوق الكلمات متناسقة لا مرسلة بددا ، ومتناظمة لا طرائق قددا ، مع الاستكثار من نوابغ الكلم الهادية إلى مراشد حر المنطق ، الدالة على ضالة المنطيق المفلق) .

اختلاف الميدان والأهداف عن المعاجم اللغوية ، أدى إلى اختلاف المصادر ، فمن البديهي أن المعاجم اللغوية اللفظية لا تخرج الأدباء ، ولا تمدهم : بالعبارة الأدبية ، ولا تعرفهم أسس البلاغة . أما الذي يفعل ذلك فهو الأدب نفسة . وإذن فهو المصدر الطبيعي لكتاب يعنى بالبلاغة ، وقد كان . قال المؤلف في مقدمته :

(فليت له العربية ، وما فصح من لغاتها ، وملح من بلاغاتها ، وما سمع من الأعراب في بواديها ، ومن خطباء الحلل في نواديها ، ومن قراضبة نجد في أكلائها و مراتعها ، ومن سماسرة تهامة في أسواقها و مجامعها ، وما تراجزت به السقاة على أفواه قلبها ، وتساجعت به الرعاة على شفاه علبها ، وما تقارضته شعراء قيس وتميم في ساعات المماتنة ، وما تزاملت به سفراء ثقيف وهذيل في أيام المفاتنة ، وما طولع في بطون الكتب و متون الدفاتر من روائع ألفاظ مفتنة ، وجوامع كلم في أحشائها مجتنة)[٥٤] .

المنهج :

لم يفصح الزمخشري – في مقدمته – عن منهجه ، ولكنه اكتفى بالإشارة إلى نقطتين : أولاهما ترتيب الألفاظ ، قال : (وقد رتب الكتاب على أشهر ترتيب متداولا ، وأسهله متناولا ؛ يهجم فيه الطالب على طلبته موضوعة على طرف الثمام و حبل الذراع ، من غير أن يحتاج في التنقير عنها إلى الإيجاف و الإيضاع وإلى النظر فيما لا يوصل إلا بأعمال الفكر إليه ، وفيما دقق النظر فيه الخليل وسيبويه)[٥٥] .

وأراد بذلك الترتيب الألف بائي المعهود ، ورتب وفقا له الألفاظ من أولها إلى آخرها ، بحسب حروفها الأصول وحدها ، وكان ذلك للمرة الأولى في تاريخ المعاجم العربية العامة ، وإن سبق إليه بعض أصحاب الرسائل اللغوية الصغيرة والمعاجم الخاصة كما رأينا . أما النقطة الثانية ، فهي أنه كان يقسم مواده إلى قسمين : الأول للمعاني الحقيقية ، والثاني للمجازية ، ويفصل بينهما . قال بصدد ذلك : (ومنها تأسيس قوانين فصل الخطاب والكلام الفصيح ، بإفراد المجاز عن الحقيقة والكناية عن التصريح)[٥٦] .

ولذا يتبين لنا من مواد المعجم أنه مقسم إلى قسمين ، إذ أن القسم الأول من أي مادة مخصص للمعاني الحقيقية، وذلك بإيراد مجموعة من الصيغ المشتقة من هذه المادة ، لا يقصد منها استقصاء في الجمع ، وذلك من خلال شواهد وعبارات. والقسم الآخر مخصص للمعاني المجازية لكل مادة.

المعجم :

ينقسم المعجم إلى أبواب وفقا لحروف ألف باء المعروفة ؛ فالأول باب الهمزة ثم باب الباء ، فباب التاء ، فباب الثاء ، فباب الجيم ... إلى باب الياء ، مع تقديم باب / الواو ، على باب الهاء ، والباب يحتوي على الألفاظ التي أولها الحرف المعقود، فباب الهمزة مثلا للألفاظ المبدوءة بالهمزة ، وباب الباء للمبدوءة بالباء ، وباب التاء للمبدوءة بتاء ... وهلم جرًّا .

قراءة في شواهد المعجم:

ومن الظواهر المهمة في الكتاب إيراد ألفاظه في عبارات ، كما افتخر المؤلف في مقدمته ، أي أن الأساس ليس معجما للألفاظ المفردة ، بل للعبارات المؤلفة ، مرتبة بحسب اللفظ البارز فيها لا الأول . ولا يعني ذلك أنه لم يورد ألفاظا مفردة وفسرها بل فعل ذلك كثيرا وخاصة في القسم الحقيقي من مواده . ولكنه وجه إلى العبارات المؤلفة عنايته الأولى . وتمثلت هذه العبارات المؤلفة عند المؤلف في عدة أنواع، هي الآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية ، والأمثال ، والأسجاع ، وأقوال الفصحاء والأعراب ، والتعبيرات الخاصة .

أما الآيات فكان المؤلف ، في أكثر الأحيان يوردها في تضاعيف الكلام دون أن يشير إلى أنها من القرآن إلا قليلا ، وهذه بعض أمثلتها : قال في (أجر) : « ومنه قوله تعالى : (عَلَىٰ أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ ۖ) أي تجعلها أجرى على التزويج ، يريد المهر من قوله تعالى : (فَآتَوْهُنَّ **أُجُورَهُنَّ**) . وقال في (حبر) : (حبره الله : سره ، " فهم في روضة يحبرون " ، وهو محبور : مسرور). وفي (شق) : (أخذ شقه : نصفه ، " لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس " بمشقتها ومجهودها .. و(بعدت عليهم الشقة) : الطريق) وما شابه ذلك .

أما الأحاديث فنبه المؤلف على كثير منها ، وأهمل كثيرا أيضا ، ولكن لم يبلغ ما أهمله مبلغ ما جاء من الآيات مجردا . قال في « أشب » : « الأشب : شدة التفاف الشجر حتى لا مجاز فيه ، ومنه الحديث « بيني وبينك أشب » وفي « بعل » ، : وهو يباعل أهله : أي يلاعبها .. (وهذه الأيام أكل وشرب وبعال) » ، . وفي « خوف » ، : « هذا أمر مخوف ، و (أخوف ما أخاف عليكم ضعف الإيمان » ،. وفي « سلم » : « و(على كل سلامى من أحدكم صدقة) : وهي عظام الأصابع اللينة ، . وفي « عجم » ، : «الفحل الأعجم حرى أن يكون مثناثا : وهو الأخرس الذي يهدر في شقشقة لا ثقب لها فلا يخرج الصوت منها . و(جرح العجماء جبار) و(صلاة النهار عجماء) .

وأمثال العرب كثيرة في الأساس : بعضها منبه عليه ، والآخر غير منبه عليه ، مثلها مثل الأحاديث ، قال في « بطر» : « بيطر الدابة بيطرة ، و(أشهر من راية البيطار) ، وفي «حجز» : وفي مثل : (ما يحجز فلان في العكم) أي لا يقدر على إخفاء أمره . وفي «رغث»: (وفي مثل (آكل من برذونة رغوث) وغيرها .

ولم يكن المؤلف ينبه على كثير من هذه الآيات والأحاديث والأمثال لأنه لا يريد التعريف بحقيقتها ، وإنما يريد كونها من العبارات الفصيحة فحسب ، بغض النظر عن القائل . وقد ذهب إلى أبعد من ذلك ، فلم يفسر كثيرا منها.

وكذلك العبارات المسجوعة كثيرة في الأساس بل تبلغ من الكثرة بحيث لا تكاد تخلو صفحة منها، وخاصة في الجزء الأول من الأساس . ولا يعرفنا صاحب الأساس شخصية قائلي هذه الأسجاع، ولا يعني بذلك ، فالذي يعنيه هو عبارتها حسب. ولا شك أن هذه الكثرة لها دلالتها الواضحة ، على نظرة أهل ذلك العصر الذي عاش فيه الزمخشري إلى السجع ، ومدى تقديرهم إياه ، وعده من الأسس الهامة للبلاغة . وكان من آثار ذلك شيوعه في كتاباتهم ، أو بعبارة أدق سيطرته عليها .

أما أقل أنواع العبارات ، فالتعبيرات الخاصة التي فقدت معنى ألفاظها الحرفي واكتسبت معنى كليا جديدا . ولا ترجع قلتها إلى عجز المؤلف ولكن إلى أنها قليلة في اللغة نفسها ، بل في جميع اللغات . ووضع المؤلف أكثرها في الأقسام المجازية لأنها اللائقة بها . وكما ألف الزمخشري في جميع الأنواع السابقة من عبارات :

ويستنبط المرء من هذا أن الزمخشري يتمثل البلاغة في العبارات الحقيقية من الآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية ، وأقوال الفصحاء ، وفي السجع والاستعارة ، والكناية ، والمجاز اللغوي . وإذن فأساس البلاغة هو العبارة الجميلة ، والعبارة المسجوعة . ويرى من ذلك أن الزمخشري لا يتناول (البلاغة) بالمعنى الاصطلاحي ، وهي العلم المعروف بذلك الاسم . فقد كان هذا العلم في عصر الزمخشرى نفسه يضم فروعا كثيرة من القول لم يتعرض لها المؤلف في (أساسه) ولم يعن بذلك بل لم يعن بكتب علم البلاغة التي كانت موجودة في عهده ، ومن أهمها كتب ابن المعتز والآمدي و الجرجاني والعسكرى . ومن ثم لم تظهر عنده المصطلحات البلاغية ولم يتناول المجاز والاستعارة ، والكناية ، بمعناها العلمي المحدد فخلط كثيرا بينها .

نتائج البحث:

١- يعد جار الله أبو القاسم محمود الزمحشري (ت٥٣٨هـ) من المعجميين القدامى الذين أولوا للاستشهاد اللغوي أهمية كبيرة . وهو من المحافظين على البنية التقليدية للمعجم العربي، فقد جاء معجمه ثريا بالشعر والقرآن الكريم والحديث النبوي الشريف إلى جانب الأمثال والأقول المأثورة من كلام فصحاء العرب.

٢- تصدرت الشواهد الشعرية على باقي الشواهد، إذ كان عدد الشواهد الشعرية (٥٦٨٢) شاهداً. والأمثال والأقوال المأثورة (١٥٩١) شاهداً. والآيات القرآنية (٤٥٢) شاهداً. والحديث النبوي الشريف (٤٥٠) شاهداً.

٣- طغى الشعر الجاهلي في المعجم على باقي الشواهد الشعرية للأزمنة اللاحقة، كما كانت الشواهد الشعرية من العصر الأموي كثيرة ، بينما قلت الشواهد الشعرية من العصر العباسي سوى أبيات قليلة لأبي نواس (ت ١٩٨هـ) وأبي تمام (ت ٢٣١هـ) وأبي الطيب المتنبي (٣٥٤هـ) ، وأهمل أشعار بشار بن برد (ت١٦٧هـ) وكذلك أشعار أبي العتاهية (ت٢١١هـ) وأبي فراس الحمداني(ت ٣٢٠هـ) .. وغيرهم من كبار شعراء العصر العباسي.

٣- أهمل المؤلف كثيراً من الألفاظ العربية الحيَّة وغير المهجورة، بينما أثبتها من جاء بعده.

٤- كما أن في المعجم اضطراب في الترتيب، وظهر هذا ذات مرة حين وضع المضاعف الثنائى من الهمزة مع الياء (أي) في مقدمة الفصل وحقه أن يؤخره بحسب منهجه الذي سار عليه في الكتاب كله .

٥- الاضطراب بين المعتل الواوي واليائى . وظهر هذا في مادة (أبي) ، التي وضع فيها بعض الصيغ المشتقة من (أبو) الواوية ، التي قدمها المؤلف نفسه على : المادة اليائية ، وهذان المأخذان قليلان تافهان ولكن المأخذين الآتين كثيران متكرران .

٦- إدخال المواد الرباعية في الثلاثية ، فقد أدخل حدبر في (حدب) و(حدرج) في (حدر)، و(حشرج) ، في (حشر) ، وسمحق ، في (سمح) ، و(سمدع) ، في (سمد) ، وغيرها . .

٧- إغفاله ذكر أصحاب العبارات والأسجاع وما إليها ، فإن ذلك كان يفيدنا فائدة لا تقدر في ترتيب هذه العبارات ترتيبا تاريخيا إذا أردنا ، ونتبين منه التطور التاريخي للمعنيين الحقيقي والمجازي لها .

ومجمل القول إنه يجمل بالمرء النظر إلى أساس البلاغة على أنه معجم خاص بالتعبير العربي ، وبالعبارة المؤلفة البليغة ، لا أنه معجم الألفاظ . فيوضع الكتاب موضعه اللائق به ، ويقدر حق قدره . وينسب إلى مؤلفه فضل توجيه حركة المعاجم إلى العبارات الأدبية البليغة ، بدلا من الاقتصار على الألفاظ المفردة ، وفضل العناية بالعبارات المجازية المختلفة الأنواع وتوجيه الاهتمام إليها في ذاتها لا كما كان يفعل من قبله . وينسب إلى الزمخشرى فضل آخر في المنهج ، وهو سيره على الترتيب . الألف بائي للمرة الأولى في تاريخ المعاجم العربية باعتبار أوائل الكلمات فثوانيها فثوالثها ، أي من بداياتها لا من نهاياتها كما فعل الجوهري وأتباعه [٥٧].

الهوامش:

(١) السيوطي : الاقتراح ٢٢، ٢٩ ، ٩٨ ، والمزهر ١ :١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٠٩ .

(٢) السيوطي : المزهر ٢ : ٢٣٦ .

(٣) الزخرف : الآية ٥٨ .

(٤) مريم : الآية ٩٧ .

(٥) السيوطي : المزهر ١ : ١٠٤ .

(٦) بحار الأنوار ، العلامة محمد باقر المجلسي، ج١٧ : ١٥٨

(٧) ينظر ، المعجم العربي نشأته وتطوره، د. حسين نصار: ٢٨

(٨) ينظر المعجم العربي، د.حسين نصار : ١٥.

(٩) الطبرى : التأريخ ٢:١٣٥٤ .

(١٠) المبرد : الكامل ٢٦٤ ، والطبرى : التاريخ ٢: ١٩٢٠ .

(١١) المرجع السابق .

(١٢) أحمد أمين : فجر الإسلام ١٠٩ ، فلهوزن : الدولة العربية وسقوطها ٢٨٠، ٤٩٨ .

(١٣) ابن عبد ربه : العقد الفريد ، كتاب اليتيمة في النسب وفضائل العرب ٢ : ٢٦٠ .

(١٤) ابو الفرج : الاغاني ٥ : ١١٣ ، ٦ : ٣٠٣ .

(١٥) ابن عبد ربه : العقد الفريد ٢ :٢٦٠ .

(١٦) أبو الفرج : الأغاني ١٤ : ١٤٤ .

(١٧) ابن عبد ربه : العقد الفريد ٢ : ٢٦١ .

(١٨) ابو الفرج : الاغاني ١٥ : ١٠٦ .

(١٩)الدكتور احمد امين : ضحى الاسلام ١ : ٢٤ ، وابن عبد ربه : العقد الفريد ٢ :٢٦٠ .

(٢٠) ابن عبد ربه : العقد الفريد ٢ : ٢٦٠ .

(٢١) الطبري : تاريخ ٢ : ٦٢٣ .

(٢٢) ابن حجر : التهذيب ٣ : ٤٣٧ ، وانظر الجاحظ : البيان والتبيين ١ : ٣١٠ .

(٢٣) الطبري : التاريخ ٣ : ٢١٠ .

(٢٤) ابن عبد ربه : العقد الفريد ٢ : ٢٦٣ .

(٢٥) ينظر : المعجم العربي نشأته وتطوره، د. حسين نصار، ط٤،مكتبة مصر للطباعة، القاهرة، ١٩٨٨م :١٧

(٢٦) ينظر نفسه :٢٧

(٢٧) ينظر نفسه :٢٧

(٢٨) احمد أمين : ضحى الإسلام ٢ : ١٣ .

(٢٩) ينظر المعجم العربي ، مرجع سابق : ٢٨

(٣٠) احمد أمين : ضحى الإسلام ٢ : ٢٦٣ .

(٣١) ابن منظور: لسان العرب. مادة عجم، ج١٢، ص٣٨٥.

(٣٢) سر صناعة الإعراب' عثمان بن جني أبو الفتح، تحقيق مصطفى السقا وغيره. ط ١. القاهرة، البابي سنة ١٩٥٤م :٤٠.

(٣٣) المعجم الوسيط، إبراهيم مصطفى وأحمد حسن الزيات وآخرون، مجمع اللغة العربية،ط٢ ، مكتبة المرتضوي، طهران، إيران،١٤٢٧هـ : ٤٩٧ .

(٣٤) ينظر معجم لسان العرب، مرجع سابق، المجلد السابع: ٢٣٨.

(٣٥) الشاهد في المعاجم العربية القديمة، المثال والشاهد، وقائع ندوة جامعة ليون ٢، ط١، دار ومكتبة الهلال ، بيروت، لبنان، ٢٠١٠م: ٩٨

(٣٦) خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، عبد القادر بن عمر البغدادي، تحقيق: د. محمد نبيل طريفي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠٠٩م ج١ : ٣.

(٣٧) تخليص الشواهد وتلخيص الفوائد، للعلامة جمال الدين ابن هشام الأنصاري، تحقيق: د. عباس مصطفى الصالحي، ط١، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ١٩٨٦م : ٣٩.

(٣٨) القاموس المحيط، العلامة محمد بن يعقوب بن محمد الفيروزأبادي، تحقيق: د. يحيى مراد، ط٢، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ٢٠١٠م :٤.

[٣٩] ينظر الشاهد في المعاجم العربية، مرجع سابق: ٩٩.

[٤٠] ينظر القاموس المحيط، مرجع سابق :٣٨.

[٤١] ينظر: الشاهد في المعاجم العربية، مرجع سابق: ١٠٠.

[٤٢] ينظر المثال والشاهد، مرجع سابق: ١٠٢

[٤٣] المزهر في علوم اللغة العربية وانواعها، للعلامة عبد الرحمن جلال الدين السيوطي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم وآخرون، ج١، منشورات المكتبة العصرية ، صيدا، لبنان ، ١٩٩٨م : ٢١١– ٢١٢.

[٤٤] المرجع السابق : ٢١٢.

[٤٥] ينظر المثال والشاهد، مرجع سابق:٢٤.

[٤٦] المرجع السابق : ٢٤

[٤٧] ينظر المرجع السابق: ٢٥.

[٤٨] ينظر المرجع السابق: ٢٥–٢٦.

[٤٩] ينظر المرجع السابق: ٢٨.

[٥٠] ينظر المرجع السابق :٢٩.

[٥١] ينظر المثال والشاهد في كتب النحويين والمعجميين العرب، مرجع سابق : ٤٢–٤٣.

[٥٢] أسرار البلاغة ، المقدمة:١٥ .

[٥٣] المعجم العربي: د. حسين نصار :٥٥١.

[٥٤] أساس البلاغة ، المقدمة :١٥.

[٥٥] نفسه :١٦ .

[٥٦] نفسه : ١٦ .

[٥٧] ينظر : المعحم العربي، مرجع سابق : ٥٦٦.

المصادر :

١– القرآن الكريم.

٢– إبراهيم مصطفى وأحمد حسن الزيات وآخرون، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية،ط٢ ، مكتبة المرتضوي، طهران، إيران،١٤٢٧هـ : ٤٩٧ .

٣– ابن عبد ربه أحمد بن محمد الأندلسي، العقد الفريد، تحقيق: مفيد محمد قميحة، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٩٨٣م.

٤– ابن منظور الأفريقي (ت٧١١هـ) ، معجم لسان العرب، تحقيق: ياسر سليمان أبو شادي، ومجدي فتحي السيد، ط١، دار التوفيقية، القاهرة، ٢٠٠٩م.

٥- ابن هشام جمال الدين الأنصاري، تخليص الشواهد وتلخيص الفوائد، تحقيق: د. عباس مصطفى الصالحي، ط١، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ١٩٨٦م.

٦- أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (ت٣١٠هـ)، التاريخ (تاريخ الرسل والملوك)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط٢، دار المعارف المصرية، ١٩٦٧م.

٧- أبو العباس محمد بن يزيد المبرد، الكامل في اللغة والأدب ، ت: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط٣، دار الفكر العربي ، القاهرة، مصر، ١٩٩٧م .

٨- أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، ط٢، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، ١٩٦٠.

٩- أبو الفتح عثمان بن جني، سر صناعة الإعراب، تحقيق: مصطفى السقا ، ط ١، مطبعة البابي، القاهرة، ١٩٥٤م.

١٠- أبو الفرج علي بن الحسين الأصفهاني (ت٣٥٦هـ)، تحقيق: د. إحسان عباس وآخرون، ط١، دار صادر، بيروت، لبنان، ٢٠٠٢م.

١١-أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ن٨٥٢هـ)، تهذيب التهذيب، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، مصر، ١٩٩٣م

١٢-أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري (ت٥٣٨هـ)، أساس البلاغة، تحقيق: محمد باسل عيون السود، ط٢، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.٢٠١٠م.

١٣- أحمد أمين، ضحى الإسلام، ط١، لجنة التأليف والترجمة والنشر، مطبعة الاعتماد، القاهرة، مصر، ١٩٣٣م.

١٤-د. حسين نصار، المعجم العربي نشأته وتطوره، ، ط٤،مكتبة مصر للطباعة، القاهرة، ١٩٨٨م .

١٥-زكية السائح دحماني، الشاهد في المعاجم العربية القديمة، المثال والشاهد، وقائع ندوة جامعة ليون ٢، ط١، دار ومكتبة الهلال ، بيروت، لبنان، ٢٠١٠م.

١٦-عبد الرحمن جلال الدين السيوطي (ت٩١١هـ)، المزهر في علوم اللغة وانواعها، تحقيق: محمد أحمد جاد المولى و محمد أبو الفضل إبراهيم و علي محمد البجاوي، ط١، المكتبة العصرية ، صيدا و بيروت، لبنان، ١٩٩٨م.

١٧-عبد الرحمن جلال الدين السيوطي، الاقتراح في أصول النحو، تحقيق: عبد الحكيم عطية، ط٢، دار البيروتي، لبنان، ٢٠٠٦م.

١٨- عبد القادر بن عمر البغدادي، خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، تحقيق: د. محمد نبيل طريفي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠٠٩م .

١٩-محمد باقر المجلسي (ت١١١٠هـ)، تحقيق: لجنة من العلماء، ط١، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٨٣م.

٢٠- العلامة محمد بن يعقوب بن محمد الفيروزأبادي، القاموس المحيط، تحقيق: د. يحيى مراد، ط٢، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ٢٠١٠م.

٢١- يوليوس فلهوزن، تاريخ الدولة العربية، تر: د. محمد عبد الهادي أبو ريده، ط٢ ، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٦٨م.